مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 19،العدد 74-75 (ربيع/صيف 2008)،ص 113

في الذاكرة

فضل مصطفى النقيب*

النزعة الإنسانية في فكر عبد الوهـاب المسيري

ترصد هذه المقالة المسيرة الفكرية الثرية للباحث والأستاذ الجامعي المصري الراحل عبد الوهاب المسيري، والتي أنجز خلالها مجموعة من المؤلفات الثاقبة كان لها شأن كبير في فهم اليهود والظاهرة اليهودية والجماعات اليهودية في العالم، وفي مقدم هذه المؤلفات "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية". وتحاول المقالة أن تفسر التحولات الفكرية التي طرأت على عبد الوهاب المسيري، وكيف انتقل من الماركسية إلى طراز من التفكير "الإسلامي" الذي لا يرفض الاستناد إلى مناهج البحث الحديثة وطرائق التفكير المعاصرة. وعلاوة على ذلك، يتطرق الكاتب إلى النشاط السياسي الذي مارسه عبد الوهاب المسيري كمعارض للنظام السياسي المصري.

برحيل عبد الوهاب المسيري، في الثالث من تموز/يوليو 2008، خسرت الثقافة العربية واحداً من أبرز المفكرين الذين قاموا بمساهمات فكرية رائدة ومميزة على امتداد أعوام ربع القرن الماضي، كما خسرت جماهير المقاومة في الأمة العربية واحداً من أبرز قيادات الحركة الوطنية المصرية الديمقراطية، والذي كرس حياته كلها لمقاومة الحركة الصهيونية.

سيمضي وقت ليس بالقصير قبل أن يتمكن دارسو المسيري من الإلمام بالجوانب المتعددة لإنجازاته الفكرية، فقد كان مفكراً ذا اهتمامات عديدة ومتنوعة، وسيمضي وقت أطول قبل أن يتمكنوا من القيام بتقويم شامل لمساهمته في الفكر العربي الحديث، فهو، على غرار المفكرين الحقيقيين كلهم، لا يمكن تقويم إنجازه الفكري بصورة كاملة قبل رصد تأثير ذلك الفكر في جيل المفكرين الذين سيأتون بعده.

ومن هذا المنظور، فإن هذه المقالة لا تهدف إلى البحث في فكر المسيري، بل إلى الحديث عن ثلاث صفات بارزة في شخصيته ميّزته من كثير من المثقفين، وأفردت له موقعاً متميزاً ورياديا في المشهد الفكري العربي طوال ربع القرن الماضي.

(1)

لفهم الصفة المميزة الأولى للمسيري، يبدو مفيداً أن نتوقف عند مقولة مشهورة لبرتراند رسل (1872 – 1970) يؤكد فيها أنه، عبر تاريخ الفلسفة كلها، منذ عهد الفلاسفة اليونان القدماء حتى فلاسفة العصر الحديث، هناك نوعان مختلفان من الفلاسفة. النوع الأول يخص المفكرين الذين ينهجون في تفكيرهم منهج أسلوب الرياضيات، والنوع الثاني يخص المفكرين الذين يسترشدون بأسلوب العلوم التجريبية.

في الماضي، كان الفرق بين الأسلوبين يتحدد على أن الرياضيات تتبع الأسلوب الاستدلالي، أي التوصل إلى استنتاج خاص من قانون عام، ومن أشهر ممثلي هذا النوع فلاسفة من طراز أفلاطون، وتوما الأكويني، وسبينوزا، وكانت. وفي المقابل تتبع العلوم التجريبية الأسلوب الاستقرائي، أي التوصل إلى استنتاج عام من مراقبة حالة خاصة، وكان ممثلو هذا الأسلوب فلاسفة من طراز أرسطو ثم لوك وهيوم. وكان الأسلوبان يتمتعان بالدرجة نفسها من اليقين، فتعبير "اليقين الرياضي" لم يكن يختلف عن تعبير "الحقيقة العلمية". أمّا في وقتنا الحاضر، وعلى وجه الدقة منذ ظهور نظرية النسبية لأينشتاين، فقد أصبح الأمر مختلفاً، إذ بينما ظل تعبير "اليقين الرياضي" يعني حقيقة مطلقة صالحة في أي زمن، أصبح تعبير "الحقيقة العلمية" يعني حقيقة نسبية تخص دوماً زمناً محدداً مع الإدراك التام أن تلك الحقيقة ستتطور وتتغير مع مرور الزمن. والسبب في ذلك هو أن الرياضيات منظومة منطقية من ابتكار الإنسان، ولهذا فهو قادر على التوصل فيها إلى اليقين الكامل، بينما العلوم التجريبية تخص الطبيعة التي ليست من خلق الإنسان. ومع أن لتلك الطبيعة وجوداً مستقلاً عن الإنسان إلاّ إن معرفته بها ليست مستقلة عنه، وبالتالي فهي تتطور مع تطوره. وفي هذا السياق، فإننا ننظر اليوم إلى الكتّاب الذين يطمحون إلى صوغ نظريات

في المعارف الاجتماعية والإنسانية، والتي لها ما يشبه اليقين الرياضي، على أنهم يحاولون التوصل إلى نتائج لها صفة اليقين الكامل، وهذا لا يحدث إلاّ إذا كانت تلك النتائج تخص بيئة اجتماعية وإنسانية تعيش في مخيلة أصحاب تلك النتائج، وهي طبعاً غير البيئة الموجودة في الواقع.(1)

لقد اتبع عبد الوهاب المسيري أسلوب الرياضيات عندما كان في مرحلة التكوين الفكري طوال الأعوام الأربعة من الدراسة الجامعية. ففي تلك المرحلة كان يبحث عن اليقين المطلق، اليقين الرياضي، ووجده في الماركسية والفلسفة المادية، فانضم في سنة 1959 إلى الحزب الشيوعي المصري. لقد قدمت له الماركسية في ذلك الوقت راحة عقلية كاملة إذ وجد فيها إجابات محددة متسقة عن الأسئلة الوجودية والفكرية والسياسية كلها، التي كانت تطرح نفسها عليه بقسوة وإلحاح، وذلك لأنها فلسفة تملك رؤية شاملة تفسر المراحل جميعها التي مر بها الإنسان في تطوره التاريخي حتى وصل إلى وضعه الراهن. ومن ناحية أُخرى، وجد في انحياز الحزب الشيوعي إلى مصالح الطبقات الفقيرة المسحوقة تجاوباً في نفسيته التي كانت متشوقة إلى الانضمام إلى حركة سياسية جادة تعمل على رفع الظلم التاريخي الذي يثقل كاهل الأغلبية العظمى من الشعب المصري.

لكن تلك الراحة لم تستمر طويلاً، فمع مرور الأيام أصبح يلاحظ أنه يمر بتجارب حياتية لا يستطيع فهم ماهيتها ومعناها بواسطة المنظومة المعرفية للفلسفة الماركسية المادية، كما أن هناك أحداثاً سياسية كثيرة أتت على عكس ما تنبأ به المفكرون الذين يستشرفون المستقبل من خلال المفهوم الماركسي لقراءة التاريخ. لقد بدأ يعاني القلق الفكري الناجم عن الحياة في أوضاع تطرح أسئلة ملحة من دون أن يكون لديه أجوبة عنها.

لم يكن عراك عبد الوهاب المسيري مع الأسئلة الملحة التي واجهها مع بداية الدراسات العليا سهلاً، فالاعتقاد بأن رؤيته الفلسفية اهتزت وما عادت صالحة، هو شيء، والتخلي عنها هو شيء آخر. تماماً كما أن الاعتقاد بضرورة الإقلاع عن عادة قديمة هو أمر سهل، أمّا تركها في الواقع فهو أمر صعب جداً. فعبد الوهاب لم يكن ماركسياً في المجال السياسي فحسب، بل كان أيضاً ماركسياً في المجال الفلسفي، أي أنه كان يرى العالم والتاريخ من وجهة نظر الفلسفة المادية التي ترى أن هناك قانوناً مادياً واحداً يسري على الطبيعة والإنسان. وكان يفهم التاريخ ويحلل ظواهر الحاضر ويستشرف احتمالات المستقبل باستعمال الأداة المعرفية لتلك الفلسفة وهي "المادية الديالكتيكية". وكان تجاوز ذلك صعباً وقاسياً وشاقاً، إذ إنه يعني التخلي عن رؤية شاملة للإنسان والكون والتاريخ، وعن منهج للتحليل والبحث، وبحسب قوله: *"لم يتم الانتقال من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية دفعة واحدة. بل كانت عملية طويلة شاقة استمرت أكثر من ربع قرن."(2)*

عندما أخذ عبد الوهاب المسيري يشعر بالشك تجاه الفلسفة المادية وقدرتها على تقديم فهم مقنع لأحداث العالم الذي يعيش فيه، راح يعاني آلام الصراع النفسي الناشئ من صعوبة التخلي عن الطريقة التي اعتاد أن يفكر بها منذ سنين، ومن صعوبة الاهتداء إلى طريقة أفضل. لكن الذي ساعده في تحمل آلام ذلك الصراع هو أنه اكتشف بسرعة أنه لم يكن صراعاً جديداً، وإنما كان موجوداً في حياته بشكل خافت صامت منذ أن تبنى الفلسفة المادية في بداية دراسته الجامعية. فمنذ ذلك الوقت وهو يعيش حياة صراع صامت بين نموذجين مختلفين: نموذج ظاهري مادي ذي صوت مرتفع، ونموذج كامن في أعماق نفسه يعبر عن حقيقة إنسانية أكبر وأشمل من الواقع المادي، وهي حقيقة تؤكد أن الإنسان مختلف عن الكائنات الأُخرى، ولا يمكن تفكيك وجوده واختزاله إلى عناصر مادية محكومة بالقوانين ذاتها التي تتحكم في الطبيعة. كان يتكلم ويكتب بمفردات وعبارات النموذج المادي الظاهري، لكنه في الوقت ذاته كان يفكر ويتصرف ويراقب الآخرين بمفهوم النموذج الإنساني الباطني.

من الواضح أن هذا الانقسام بين **"الخارج والداخل"** وبين **"الظاهر والباطن"** ما هو إلاّ تعبير عن حالة اغتراب فكرية ناجمة عن كونه يؤمن بفلسفة تتناقض مع خلفيته الثقافية وبيئته الإنسانية.

لقد تجلت قدرة المسيري الفكرية في إدراكه، باكراً، أن حالة الاغتراب ليست ناشئة من التعلق بمفاهيم أوروبية غربية، ومن التنكر للثقافة العربية فحسب، بل إنها في حقيقة الأمر ناجمة أيضاً عن التعلق بمفاهيم أوروبية غربية قديمة، تخص أزمنة أُخرى تجاوزتها المفاهيم الغربية الحديثة. ولهذا، فهو لم يحاول التخلص من حالة الاغتراب عن طريق قطع الصلة نهائياً بالفلسفة المادية والعودة إلى التراث العربي الإسلامي كما فعل كثير من الماركسيين العرب السابقين، بل على العكس، فإن ما فعله هو أنه تعلم كيف يعيش الصراع بين النموذج المادي الخارجي والنموذج الإنساني الباطني بشكل حر من دون أي قيود، فما عاد يتحدث ويكتب من وحي نموذج ما، ثم يشعر ويتأمل من وحي نموذج آخر، وإنما أخذ يعمل جاهداً على التخلص من الاغتراب بواسطة العمل الدائم على ابتكار نماذج معرفية تحرره وتجعله قادراً على أن يتحدث ويفكر ويشعر بطريقة واحدة. والنجاح في ذلك كان، بحكم

طبائع الأشياء، يحتاج إلى فهم واستيعاب مثل وقيم الحياة العربية الإسلامية في سياق فهم واستيعاب آخر ما توصل إليه الفكر الإنساني، أكان غربياً أو غير غربي، في مجال الفلسفة والمعارف الاجتماعية والإنسانية.

وبعد سنوات من التمرس في الاستعمال الحر للأفكار وجد المسيري أن النموذج الإنساني الكامن في وجدانه نما وتطور وأصبح له صوت مرتفع، وأنه بذلك انتقل من عالم المادية الضيق إلى عالم أكثر رحابة مبني على أساس التخلي عن الإيمان بوجود قانون واحد يتحكم في الطبيعة والإنسان، وعلى أساس أن الإنسان جزء من الطبيعة وهو في الوقت نفسه متجاوز لقوانين الطبيعة، وأن الله هو الذي يضمن هذا التجاوز.

إن أهمية هذا التطور الفكري هو أن استعادة عبد الوهاب المسيري للإيمان بالله لم تجعله ينقلب على تاريخه الشخصي فيعادي الماركسية ويصبح سلفياً أو أصولياً إسلامياً، بل إنه على العكس من ذلك، تخلى عن جانب "اليقين الرياضي" في الماركسية وظل يتعامل مع "جانبها العلمي"، أي أنه تخلى عن الإيمان بالماركسية كفلسفة كاملة في الحياة وأخذ يتعامل معها كأحد النظم المعرفية في العلوم الاجتماعية التي لها قدرة تفسيرية مفيدة في كثير من المجالات. كما أن إيمان المسيري يختلف جذرياً عن الإيمان السلفي (الإسلام هو الحل)، فهو إيمان بمرجعية الله المطلقة التي هي خارج المادة وخارج التاريخ، بينما الإيمان السلفي هو، بالضرورة، إيمان بمرجعية تكونت في زمن محدد داخل التاريخ. إيمان المسيري مرتكز على أن الإنسان هو عكس ما هو عليه في الإيمان السلفي، فهو *"كائن حر قادر على استخدام عقله، ولذا فهو قادر على إعادة صياغة نفسه وبيئته حسب رؤيته. والحرية قائمة في نسيج الوجود البشري ذاته...."*(3) وعلى هذا الأساس، يرى المسيري أن المقومات الأساسية في الحضارة التي تكرس إنسانية الإنسان هي تراث الإنسانية كلها، وهي ليست حكراً على شعب أو ثقافة معينة، وأن الانطواء على النفس ورفض التراث الإنساني غير الإسلامي يقود إلى اغتراب حضاري ليس أقل ضرراً من الاغتراب الفكري الذي ينشأ من رفض القيم العربية الإسلامية.

وهكذا نرى أن الصفة الأولى المميزة لشخصية عبد الوهاب المسيري هي أن استعادته للإيمان لم تقده إلى التزمت والتقوقع والانعزال كما حدث مع بعض المثقفين الذين تركوا الماركسية وتبنوا الإسلام؛ على العكس من ذلك، كانت عملية استعادة الإيمان عملية تحرر بمعنى أن الإيمان قدم له "اليقين الرياضي" الذي كان يبحث عنه في المعارف الاجتماعية والإنسانية، وهو ما هيأ له فرصة البحث في تلك المعارف بحرية عبر اتباع أسلوب العلوم التجريبية. أي أن حصوله على "اليقين الرياضي" في الإيمان، جعله قادراً على ممارسة "الشك العلمي" في المعارف الإنسانية والاجتماعية.

لقد أثار هذا التطور الفكري، وما زال يثير، حفيظة بعض "المثقفين" الذين لا يستطيعون فهم وجود مفكر يؤمن بعلمانية النظام السياسي (فصل الدين عن الدولة)، ويؤمن، في الوقت نفسه، بأهمية دور الإيمان الديني في تعزيز البناء الأخلاقي للمجتمع. كما أنهم لا يستطيعون أن يفهموا وجود مفكر ملتزم بروح مدارس فكرية غربية، وهو في الوقت نفسه يعادي مدارس فكرية غربية أُخرى.

ومن الطبيعي أن يكون أكثر المتضايقين من تطور المسيري الفكري هم بعض "الماركسيين السابقين" الذين تركوا الماركسية بعد أن اكتشفوا قيم "الحداثة" بنسختها الأميركية الجديدة.

(2)

ترتبط الصفة الثانية المميزة لعبد الوهاب المسيري بصفته الأولى بشكل عضوي، ومع ذلك فإن من الممكن استيعاب ماهيتها وأهميتها بصورة أفضل من خلال التوقف عند مقالة مشهورة لمفكر وفيلسوف هو إشعيا برلين (1909 – 1997) بعنوان "القنفذ والثعلب".

لقد أخذ هذا المفكر عنوان المقالة من بيت شعر لشاعر يوناني قديم يقول فيه ما معناه *"يعرف الثعلب أشياء كثيرة، لكن القنفذ يعرف شيئاً واحداً كبيراً"*، وهو يستخدم هذا الاختلاف بين القنفذ والثعلب بشكل مجازي كتعبير عن اختلاف جوهري بين نوعين من الكتّاب والمفكرين والمثقفين عامة. فهناك أولئك الذين يشبهون القنفذ في أنهم يرون العالم من خلال فكرة مركزية واحدة وبالتالي يعملون على تحقيق غاية رئيسية واحدة، وهناك أولئك الذين يشبهون الثعلب في أن لهم رؤى فكرية كثيرة ويعملون على تحقيق أهداف عديدة. النوع الأول من المثقفين يتعامل مع العالم من خلال منظار واحد شامل وجامع، وهم بذلك يسيرون على خطى أفلاطون ودانتي وباسكال وهيغل ودوستويفسكي ونيتشه وإبسن وبروست. أمّا النوع الثاني، فيخص المثقفين الذين يستعملون أكثر من منظار واحد لأنهم يرون أن فهم ما يدور حولهم في العالم يستعصي على القدرة التفسيرية لنظرية واحدة، أو مبدأ واحد، أو رؤية واحدة، وهم بذلك يسيرون على خطى هيرودوتس وأرسطو وشكسبير وموليير وغوته وبلزاك وجويس.

ومن الواضح أن عبد الوهاب المسيري يسير على خطى مفكري وكتّاب النوع الثاني، فأبحاثه كلها تصدر عن الإدراك العميق أن من المستحيل اختزال الحياة الإنسانية وفق مفهوم واحد، أو رؤية واحدة، أو نظرية واحدة، إذ إن للظواهر الإنسانية وجوداً مركباً معقداً، وتفسيرها بشكل كامل هو عملية مستحيلة. إنه يدرك أن على الباحث الجاد تطوير النظم المعرفية دائماً كي تكون قادرة على تقديم أفضل التفسيرات الممكنة للظواهر الإنسانية الجديدة، وأن ذلك يتطلب الجهد والصبر والتواضع. وبما أن المسيري كان يملك مخزوناً لا ينضب من ذلك الجهد والصبر والتواضع، فقد تمكن من إنجاز موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية" ذات المجلدات الثمانية. فخلال أكثر من ربع قرن كان يدرس ويؤلف ويناقش، ولو كان يعمل من منظور رؤيا واحدة، لكانت تلك الرؤيا، وبحكم طبائع الأمور، تحولت إلى نظرة أيديولوجية ضيقة، ولكانت مقالاته وكتبه فقدت قيمتها بعد أعوام، إن لم نقل بعد أشهر من صدورها. فقد كان يكتب بدافع البحث عن حقائق الأشياء مدركاً أن كل الذي يستطيع القيام به هو العمل *"من أجل حصر بعض العناصر التاريخية والثقافية والاقتصادية التي قد تساهم في تفسير جوانب كثيرة مما حدث وفي إلقاء الضوء عليه دون أن نزعم أننا أتينا بالتفسير الكلي والنهائي للظاهرة."*(4) وبفضل هذا الفهم "العلمي" لمهمة البحث العلمي وحدوده، وبفضل انفتاحه الدائم على مستجدات المعارف الاجتماعية والإنسانية، تمكّن المسيري من أن يراكم في نشاطه الفكري نماذج معرفية تحليلية جعلته قادراً على التقدم يوماً بعد يوم على طريق بناء موسوعة كاملة.

لقد كتب المسيري "الموسوعة" كتعبير عن تجربة لا كنتيجة للبحث فقط، ولهذا، اتصفت بصفتين من النادر أن تجتمعا في عمل ثقافي واحد. فهي من ناحية موسوعة معلومات عن نواحي الموضوع كله، وأكثرها غير معروف للقارئ العربي، وستقود كثيرين إلى إعادة النظر في كثير من المعتقدات والمسلمات السابقة؛ وهي من الناحية الأُخرى موسوعة **أفكار ومفاهيم** على أساس أن المسيري تعلم من التجربة أن **"المعلومات"** وحدها لا تشكل **"معرفة"** كما أن **"الحقائق"** وحدها لا تشكل **"الحقيقة"**. فالحقائق هي معطيات مادية متناثرة لا يربطها رابط، أمّا الحقيقة فهي نتاج جهد إنساني عقلي، تتشكل حين يقوم العقل بالربط بين **الحقائق**، ثم تجريد نموذج تفسيري منها. والموسوعة مملوءة بهذه النماذج التي توظف المعلومات من أجل الوصول إلى أكبر قدر من المعرفة. فهي إذاً، ليست موسوعة **معارف** فحسب، بل إنها موسوعة **للمفاهيم** أيضاً.

لم يكن ممكناً أن ينجز إنسان واحد موسوعة كاملة يستغرق العمل فيها ربع قرن لو لم يكن هذا الإنسان يتمتع بالصفتين اللتين تحدثنا عنهما، أي استرشاد أسلوب العلوم التجريبية في البحث، والتعامل مع الظواهر الإنسانية كأوضاع مركبة معقدة تستعصي على أي نظرة أحادية. وتتجلى لنا أهمية هاتين الصفتين عندما نستعرض أسماء أعلام الفكر والفلسفة والأدب في الثقافة العربية الإسلامية فنجد أن أعظم الفلاسفة، كابن الهيثم وابن رشد والفارابي، كانوا من الرواد في تبني منهج العلوم التجريبية في البحث الفلسفي، لا الأسلوب الرياضي. ألم يكن ابن الهيثم أول من مارس البحث العلمي وفق ثلاثية: المشاهدة والمراقبة، الفرضية والنظرية، الفحص والبرهان؟ كما أن أعظم المفكرين والشعراء، كابن خلدون والجاحظ والمعري كانوا من الرواد في تكريس التعامل مع العالم وفق رؤى ومفاهيم وأساليب عديدة. فعند العودة إلى الاستعمال المجازي للفرق بين القنفذ والثعلب نرى أن تاريخ أعلام الفكر والأدب في الثقافة العربية الإسلامية مملوء بالثعالب، ونادراً ما نعثر فيه على قنفذ. ومن هنا ندرك أن منهج المسيري في البحث كان في واقع الأمر امتداداً للتقليد الأصيل في البحث العلمي الذي كرسته الأزمنة المضيئة في الحضارة العربية الإسلامية.

(3)

إن الصفتين السابقتين لعبد الوهاب المسيري تحددان الملامح الرئيسية لمنهجه وأسلوبه في البحث والدراسة؛ ومع أنه كان يلتزم العمل بذلك المنهج والأسلوب عن قناعة عقلية – فلسفية، إلاّ إن قدرته الهائلة على بذل الجهد الدؤوب والمستمر في العمل وفق متطلبات ذلك المنهج والأسلوب طوال أعوام عمله كانت، في الواقع، بفضل صفة ثالثة غريزية فطرية متأصلة في شخصيته.

لقد عاش المسيري حياته كلها، مسكوناً بالهمّ الفكري، لكنها مع ذلك، كانت أبعد ما تكون عن الحياة النمطية لمعظم الذين يكرسون حياتهم للنشاط الفكري.. فهو لم يعش في برج عاجي، ولم يعمل على تشييد جدار بين كل من حياته الخاصة والعامة، ولم يترفع عن النزول بأفكاره إلى الشارع والمعترك السياسي. وأهم من ذلك كله، كان مرحاً، عفوياً، بسيطاً، يفرح بمتع الحياة الصغيرة، ويرفض فكرة أن "هيبة الفكر" و"وقار المفكر" يحتّمان عليه أسلوباً في الحياة يفرض الاحترام، لأنه أسلوب خال من المتعة.

أفضل وصف لتلك الصفة الغريزية الفطرية التي صبغت تصرفات عبد الوهاب المسيري كلها، هو التعبير الذي كان يردده دوماً أنه يحب أن "يعيش أفكاره". ومعنى هذا التعبير بالنسبة إليه هو أنه يحب أن يعيش على الشكل التالي: عندما يمر بحدث معين، أو يسمع خبراً معيناً، أو يقرأ قصة ما، أو يشاهد فيلماً سينمائياً، أو يستمع لأغنية جديدة، فإنه على الفور وتلقائياً، يبحث عمّا هو "عام" في الحدث أو الخبر أو القصة أو الفيلم أو الأغنية، ثم يحاول استنباط دلالة ذلك "العام" وفق "فكرة" يعتقد بصلاحيتها لتفسير ما هو بصدده. وفي المقابل، عندما يتعرف على "فكرة" جديدة، فإنه، وتلقائياً أيضاً، يحاول استعمالها لتفسير أحداث وموضوعات مر بها في السابق، وفي كلتا الحالتين فإن الهدف هو محاولة تكوين فهم أعمق لما يدور في العالم، ومحاولة تطوير وتجديد الأدوات اللازمة لتكوين ذلك الفهم.

ولذلك، لا يشعر المسيري بالثقة والاطمئنان تجاه أي "فكرة" إلاّ بقدر ما تكون قادرة على تفسير ظاهرة تسترعي اهتمامه، ولهذا فهو يقوم بجهد مستمر لتطوير أفكاره وتجديدها، والتخلي عن تلك التي لم تعد مفيدة، والبحث عن أُخرى جديدة تصلح لتفسير الظواهر المستجدة. فالمسيري "يحب أن يعيش أفكاره"، بمعنى أنه يحب أن "يستعمل الأفكار" لا أن "تستعمله الأفكار".

وفي تلك الحياة، لم يكن هناك شيء فوق المحاسبة، ولم يكن هناك مفهوم فوق المراجعة، فعلى سبيل المثال، كان المسيري يشرح في إحدى محاضراته الجامعية معنى إحدى قصائد الشعر الرومنطيقي الإنكليزي في القرن التاسع عشر، وفجأة توقف عن الشرح واعتذر من الطلبة عن عدم التمكّن من الاستمرار في المحاضرة لأنه اكتشف أن تفسيره قد يكون خاطئاً، وأنه يحتاج إلى مزيد من الوقت للتفكير في الموضوع. كما أنه في وقت آخر، وكان انتهى من إعداد أحد كتبه للنشر، سألته إحدى الزميلات سؤالاً في موضوع الكتاب لم يجد له جواباً مباشراً، فأوقف نشر الكتاب أشهراً حتى حصل على الجواب المقنع.

كان عبد الوهاب المسيري يعيش حياة لا حاجز فيها بينه وبين أفكاره، وقد اكتشف عن طريق التجربة أن قدرة الإنسان على إلغاء المسافة بينه وبين "الأفكار" التي يؤمن بها كي يتمكن من استعمالها واكتشاف نقاط ضعفها وتطويرها إنما هي في المقام الأول قدرة أخلاقية، لأنها في حقيقة الأمر تعني القدرة على مواجهة النفس باستمرار، والقدرة على ممارسة النقد الذاتي باستمرار. ومن المعروف أن أغلبية الناس تجد أن من السهل مواجهة الآخرين، ومن الصعب مواجهة النفس، فمن السهل انتقاد الآخرين، ومن الصعب محاسبة الذات.

كان المسيري قادراً على مواجهة النفس باستمرار لأنه تعلّم باكراً كيف يميز بين "المطلق" و"النسبي"، وبين "الثابت" و"المتحول"، وخصوصاً في مجال التمييز بين "المبادئ" و"الأفكار". فالمبادئ كحرية الإنسان وكرامته، والعدالة بين الناس، والمساواة التامة أمام القانون، هي قواعد ثابتة لا يجوز تبديلها أو تعطيلها أو التصرف بها، لأنها تخص الإنسان كقيمة مطلقة نهائية. أمّا الثانية فهي أفكار نابعة من الفلسفة أو العلم أو الدين، ومن الضروري فحصها وتجديدها وفق الأوضاع المستجدة، لأن قيمتها تقاس بقدر ما تقدمه للإنسان من فهم للعالم الذي يعيش فيه كي يتمكن من السيطرة عليه وتغييره للوصول إلى عالم أفضل يتحقق فيه المزيد من الحرية والكرامة والعدالة والمساواة.

وتعلّم باكراً أيضاً أن من أهم مشاكل العمل العام أن كثيرين من الحزبيين لا يميزون بين "المبادئ" و"الأفكار"، بل إنهم في أغلب الأحيان يبالغون في الاهتمام "بالأفكار" حتى ينسوا "المبادئ"، وينتهوا إلى تقديس "الوسيلة" وإهمال "الغاية". وعن طريق التجربة المتكررة أدرك أن كثيرين من الناس يرتاحون عندما تكون "أفكارهم" ملتفة برداء القداسة، لأنهم يرتاحون في الحديث عنها وتعظيمها وتبجيلها كتغطية لعدم قدرتهم على استعمالها أداة معرفية تساعدهم على تكوين فهم أفضل للعالم الذي يعيشون فيه. فقد نشأوا وتربوا وتعودوا على أن يحتفظوا بمسافة بينهم وبين "الأفكار" التي يؤمنون بها ويدعون الآخرين لاعتناقها.

ولأن عبد الوهاب المسيري كان يعيش دوماً وليس هناك أي حاجز بينه وبين أفكاره، فقد كان من نوع المثقف الملتزم الذي يعمل باستمرار من دون ملل أو كلل لتغيير الواقع:

- في سنوات الدراسة الثانوية كان ناشطاً في التظاهرات ضد الاستعمار البريطاني، وفي تحرير جرائد الحائط التي تدعو إلى مقاومة الاحتلال.
- في سنوات الدراسة الجامعية في مصر كان ناشطاً في الحزب الشيوعي المصري.
- في سنوات الدراسة الجامعية العليا في الولايات المتحدة كان ناشطاً في رابطة الطلبة العرب، وفي إلقاء المحاضرات وعقد الندوات للتعريف بالقضية الفلسطينية وحقيقة الحركة الصهيونية.

- في سنوات التعليم الجامعي في مصر والسعودية والكويت كان منهمكاً في الجهد الصعب لكتابة موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري جديد" من دون مساعدة أو رعاية من أي مؤسسة.
- في الأعوام الأخيرة من حياته، ومع أنه كان يصارع مرض السرطان، إلاّ إنه كان يشارك بشكل فعال وحيوي في نشاط الحركة الوطنية الديمقراطية حتى تم انتخابه منسقاً عاماً لحركة "كفاية". وأهمية هذه الحركة، كما هو معروف، أنها تضم أطياف المشهد السياسي في مصر كلها، من إسلاميين، ويساريين، وقوميين عرب، وقد تبنوا لأول مرة النهج الديمقراطي أسلوباً وهدفاً ووسيلة وغاية.

(4)

قبل بضعة أشهر نقلت وكالات الأنباء نبأ مفاده أنه بينما كان عبد الوهاب المسيري وزوجته السيدة هدى حجازي يشتركان في تظاهرة احتجاج نظمتها حركة "كفاية" وبعض أحزاب المعارضة في القاهرة، قام مجهولون باختطافه وزوجته. وبعد ساعات نقلت وكالات الأنباء نبأ عودة عبد الوهاب وهدى إلى بيتهما، فاتصلتُ على الفور هاتفياً به من كندا لأسأله عمّا حدث ولأطمئن على صحته، وكان قبل بضعة أسابيع تعرض لانتكاسة صحية جراء صراعه مع مرض السرطان الذي كان يعانيه منذ أعوام.

جاء صوت المسيري في الهاتف، كالعادة، عميقاً هادئاً رزيناً، وعلى الفور استرسل في وصف دقيق للذي حدث، وكيف أن رجالاً بثياب مدنية اقتادوه وزوجته عنوةً من مكان التظاهرة وأجبروهما على الركوب في سيارة سارت بهما ساعتين على الطريق السريع، ثم كيف ألقوا بهما في مكان خال ليس فيه أحد، وكيف ابتسم لهما الحظ بسرعة عندما مرت بهم سيارة باص خالية من الركاب فأعادتهما إلى القاهرة، وكيف رفض سائق السيارة أن يأخذ منهما أي أجر بعد أن عرف سبب وجودهما في ذلك المكان النائي.

روى المسيري تلك التفصيلات بدقة متناهية كأنه مشاهد محايد، وعندما سألته عن الدلالة السياسية لاختطافه وزوجته بتلك الطريقة، تحدث عن فرضيتين يمكن لكل واحدة منهما أن تقدم تفسيراً مختلفاً للذي حدث. وقال إنه ينوي عقد مؤتمر صحافي في الغد يروي فيه تفصيلات الحادثة، وهو يعتقد أن تداعيات الأحداث في الأيام المقبلة ستبين أياً من الفرضيتين اللتين ذكرهما ستكون أقرب إلى الحقيقة في تفسير سبب الخطف، أو إذا كان هناك سبب آخر لا يعرفه الآن (الفحص والبرهان).

وأنهى المكالمة بالقول إنه كان هناك فائدة كبيرة لحادث الاختطاف، إذ إن طبيبه يصر عليه دوماً بضرورة الخروج من القاهرة مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع لاستنشاق الهواء النظيف غير الملوث، وأن حادث الاختطاف منحه بضع ساعات من الاستمتاع بذلك الهواء النقي مجاناً، وانفجر بضحكة مدوية.

وبعد أن ضحكنا سوية وتبادلنا بعض التعليقات الساخرة، ودعته متمنياً له دوام الصحة والعافية والنشاط.

تركت الهاتف وأنا أتخيل نظرة عبد الوهاب المسيري الأثيرة التي تبدو كأنها قادرة دوماً على تأكيد شيء ما في هذا الوجود. ■

(*) أستاذ الاقتصاد في جامعة واترلو – كندا.

(1) آمل بأن يكون واضحاً أن التفريق بين الأسلوب الرياضي وأسلوب العلوم التجريبية في الوقت الحاضر لا يعني على الإطلاق تفضيل أسلوب على آخر، فهذا كلام لا معنى له، إذ إن لكل أسلوب مجاله المهم، والعلوم التجريبية لا تتقدم بدون استعمال الرياضيات. لكن المقصود هو أن الاعتقاد بأنه يمكن الوصول إلى نتائج في المعارف الطبيعية والاجتماعية والإنسانية تتمتع باليقين الرياضي هو مجرد وهم، وخصوصاً بالنسبة إلى المعارف الاجتماعية والإنسانية.

(2) أنظر كتاب "رحلتي الفكرية: في البزور والجذور والثمر"، وهو الكتاب الرائع الذي وصف فيه المسيري قصة حياته.

(3) من كتاب "رحلتي الفكرية".

(4) من كتاب "رحلتي الفكرية".

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx